

بوابة التاريخ

في عام 1962م أتاحت لي فرصة السفر مع (جمعية الصداقة العربية) بجامعة الخرطوم مع مجموعة متميزة من الزملاء في الكليات المختلفة بدعوة من قسم الوفود والمؤتمرات بوزارة الخارجية المصرية لزيارة الشقيقة مصر في برنامج ثقافي لتبادل الزيارات بهدف رفع الوعي العلمي والثقافي بين البلدين .. وربما يكون الهدف الأكبر تنشيط الحس السياسي بالقضايا العربية في زمان كان يتعاطم فيه زخم الحلم العربي في تحقيق الوحدة العربية .. وتأصيل القومية العربية و إحياء جذوة القضية المصرية في الصراع العربي الصهيوني.

وعند وصولنا إلى القاهرة زرنا جريدة (أخبار اليوم) ورئيس تحريرها الاستاذ الكاتب الكبير مصطفى أمين و الذي قدم لنا نبذة قصيرة عن تاريخ القضية العربية قبل أن ننطلق في زيارة ميدانية الى أرض فلسطين في قطاع غزة بالقطار من القاهرة عبر صحراء سيناء .. ورفح والعريش وخان يونس .. وقابلنا الحاكم المصري في قطاع غزة وبعض الأخوة الفلسطينيين الذين كانت تغطي ملصقاتهم جدران المدينة تحمل شتى الشعارات... "الزمن عدوك يا لاجئ" .. وعندما شرحوا لنا العبارة، عبروا لنا عن خوفهم ان ينتهي الجيل المعاصر الذي يعرف الأرض وتضاريس الجغرافيا وطرق الوصول الى الاهداف العسكرية ويأتي زمان يولد فيه جيل جديد لا يعرف خريطة الوصول الى الأرض المحتلة ولم يخطر ببال هؤلاء المناضلين أو في فكر امثالنا من القاصرين على استيعاب حقائق التاريخ وقراءة المستقبل ولم نتصور أن يأتي زمان يخرج فيه جيل من الأطفال ليعفى الجيوش من مسئولية الدفاع عن الحق العربي .. ويوفر على الدول ميزانية نفقات الأسلحة الحديثة باستعمال الحجارة في وجه القوة وخوض معركة أطفال الحجارة المستمرة خلال بضع سنوات لتعوض خسارة النكسة وتمحو عار الهزيمة وتؤكد قوة الحق في مقابل حق القوة .. وترسخ مصداقية مقولة: (ما أخذ بالقوة لا يسترد بغير القوة)، حتى وإن كانت قوة الإرادة او قوة الحجارة.

يحدث هذا والتاريخ ينظر في ذهول الى أطفال الحجارة و هم يقتحمون المجهول في الإصرار على الدخول من بوابة التاريخ أمام الآخرين الذين يهرولون للوصول الى منافذ الخروج من بوابة التاريخ حتى لو سموه "الخروج العظيم" .. فهو الخروج أو الهروب الى الإمام والذي يتعلم فن الخروج من كل الابواب .. يعرف آلية الدفع وال جذب في بوابة الخروج .. بينما إرادة الدخول هي قوة الدفع فقط و قدر الاقتحام بدون الهروب أو الاستسلام.

عود على بدء.. ظن الكثيرون أن التمرس خلف هوية القومية العربية قد يضعف الإنتماء أو الدفاع عن الهوية الإسلامية .. فافتعلوا معارك شرسه ضد القومية العربية تحت كل المسميات المضادة للنوابت والمتغيرات المثيرة للجدل والخصومات .. حتى أصبح هدف تصفيه هوية القومية العربية غاية في حد ذاتها .. وبرزت أطروحات كثيرة تدعو الى مناهضة هذه الفكرة .. والتشهير برموزها حتى اذا تبخرت الفكرة .. وتعثرت الخطى .. وسقطت التماثيل المنكرة والممسوخة كما صوروها. بدأت رياح التغيير تهب على ثوابت الهوية الاسلامية لتتهزها حتى النخاع .. لقد ضاعت الهوية العربية وفقدت شعاراتها ولسان حالها يقول: "لقد أكلت عندما أكل الثور الأبيض"، خاصة ولم يكن هناك بديل للثور الأبيض أو أهداف جامعة مانعة يبشر بها من يريد ان يمثل دور الثور الأبيض.

إن الهوية الإسلامية والتي ظلت الملاذ الآمن للمستضعفين والمستهدفين والقابضين على دينهم كالجمر، ليس فقط في المفهوم العقائدي وإنما أيضا في القاموس السياسي، أصبحت على مرمى حجر من أعداء القومية العربية الحقيقيين والذين كانوا يخططون لهذا الصراع منذ أمد طويل .. وكان استهداف العروبة -أو العروة الوثقى المتمثلة في (لغة القرآن) بداية الزحف الى حدود الهوية الإسلامية.. (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا) صدق الله العظيم.. وأخشى أن يكون الذي يجري على الساحة اليوم على امتداد خريطة العالم الإسلامي .. من المغرب الى المشرق .. مؤشرا لا يحتمل التأويل الى تصفية الهوية وافراغ العقيدة من محتواها في الشكل والمضمون ومن الداخل .. حتى اذا فرغوها بقي لنا "الهيكلي" وعلينا التأمل في المعنى والمبنى في هذا الرمز و تلك الدلالة.

لقد تدافع الناس في كل جبهات الصمود والتصدي- قلاع المقاومة في الماضي- الى الخروج من بوابة التاريخ وبعد ان كانت الدول و العواصم التي ترفع شعار المقاومة وترفض الإستسلام وتلتف حول القضايا المصيرية كالسوار حول المعصم .. أخذت تتساقط الواحدة بعد الأخرى وخرجت من معركة النضال القومي العربي دون اشعار آخر .. وبقي وهج الصحوة الإسلامية التي تهب عليها رياح التغيير لتطفئ بقايا جذوتها المشتعلة في ظلام النظام العالمي الجديد.

عود على بدء.. لم يكن وارداً في ذهن اكثر المتشائمين في عالم السياسة ان يتصور حدوث جفوة بين الوجود العربي .. والافريقي في القارة السوداء .. بعد ما كان التوحد في الرؤية و المصير لا يقف عند حد التضامن في منظمة الوحدة الافريقية أو منظمة عدم الانحياز وإنما في التلاحق العرقي والثقافي بين شمال وجنوب القارة.

بل ان اكبر كارثة حلت بالوجود العربي حدثت عندما قاد الضعف السياسي في مسيرة القومية العربية والصراع الفكري بين أعداء العروبة والاسلام ان فكرت، ولأول مرة و بصوت مرتفع، بعض الدول الافريقية بشق عصا الطاعة و اعلان اقامة علاقات دبلوماسية مع الكيان الصهيوني بعد أن كانت ردة فعل غاضبة لمواقف عنصرية مؤسفة وسياسية فجأة تجاه هذه الدول.

وما كان يدور بخلد اكثر الشامتين في مستقبل التضامن العربي أن تبادر دول عربية وتحذو حذو دول افريقية لا يربطها الدين ولا المصير المشترك مع بقايا الدول العربية والإسلامية و تفعل نفس الشيء.. وليتها تدرك:

رب شئ بكيت منه فلما صرت في غيره بكيت علي

وهكذا خرجت بعض الدول الافريقية من بوابة التاريخ .. ووصل التراجع مرحلة ان استباح اكثر الزعماء تقديسا للقومية العربية تمزيق هذه الهالة المقدسة و اعلان الخروج على القومية العربية والانتماء الى الوجود الافريقي و كأنما دعم الاول يتم على حساب الثاني.

و هكذا اختلطت النوايا وكثرت الخطايا .. وخرج العرب من بوابة التاريخ .. عربيا .. وافريقيا حتى إشعار آخر .. وبقي الخيط الرفيع الذي يربطهم بعقيدتهم الإسلامية والتي أصبح التفريط فيها أشبه بالسقوط في جهنم .. والسقوط ليس له قاع .. و بقيت البوابة الوحيدة التي أصبح الخروج منها أشبه بالخروج من الملة .. والعياذ بالله.

و اذا جاز لى أن أستعير ما قاله الصحفى الكاتب البارز و المفكر العربى الكبير الاستاذ محمد حسنين هيكل -
أحد الرموز الوطنية النادرة والعقول العربية والاسلامية الباقية على امتداد الوطن العربى -، قال فى لقاء
تلفزيونى مع (قناة الجزيرة): ان العالم قد شهد بعد الحرب العالمية الاولى و الثانية الحرب العالمية الثالثة متمثلة
فى الحرب الباردة حتى سقوط الاتحاد السوفيتى والحرب العالمية الرابعة و المتمثلة فى الحرب على الارهاب
وهى التى تدور رحاها الآن ونحن بعض أدواتها و كل وقودها و فى الختام سأله المذيع: والآن الى أين نحن
ذاهيون؟! فقال ساخرا: (فى ستين داهية). واستدل بيبتين من الشعر لشاعر النيل حافظ ابراهيم كتبها فى ورقة
صغيرة يخاطب بها ربما زوج أمه و الذى كان يعوله و ربما ضاق بمعيشته فترك المنزل قائلا:

ثقلت عليك مؤونتى .. و أنا أراها واهيه

هون عليك فانتى .. ذاهب فى داهيه

و ربما لا يعنى الاستاذ هيكل ذلك تماما.. ولا أرى ذلك يقينا و لكن الحق يقال.. (مثلما تكونون
يولّى عليكم) ...

و لنا عودة بإذن الله...

الدكتور الزين عباس عماره - أبوظبى